

خطورة النفاق والكذب  
وضرورة التنشئة على الصدق ومكارم الأخلاق  
24 من ربيع الآخر 1436هـ - 13 من فبراير 2015م

أولاً: العناصر :

- 1- حقيقة النفاق وأنواعه.
- 2- صفات المنافقين.
- 3- خطر النفاق على الأمة.
- 4- آثار الكذب على الفرد والمجتمع.
- 5- ضرورة التنشئة على الصدق ومكارم الأخلاق.

ثانياً: الأدلة :

الأدلة من القرآن الكريم:

- 1- قال الله تعالى: { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ \* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [المنافقون: 1، 2].
- 2- وقال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } [النساء: 145].
- 3- وقال تعالى: { هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون: 4].
- 4- وقال تعالى: { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ \* فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [البقرة: 9، 10].
- 5- وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ } [البقرة: 13].
- 6- وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَّا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ \* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ } [البقرة: 11، 12].
- 7- وقال تعالى: { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [التوبة: 67].
- 8- وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ } [التوبة: 73].
- 9- وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة: 119].
- 10- وقال تعالى: { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [النحل: 105].

الأدلة من السنة :

- 1- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (آية المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ). (متفق عليه).
- 2- وعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَاهَا، إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ). (متفق عليه).
- 3- وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهِينِ الَّذِي يَأْتِي هُوْلَاءَ بِوَجْهِهِ وَهَوْلَاءَ بِوَجْهِهِ» (متفق عليه).
- 4- وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلَيْهِمُ اللَّسَانِ» (مسند أحمد).
- 5- وعن أبي أمامة (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يُطَبِّعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ) (مسند أحمد).
- 6- وعن صفوان بن سليم (رضي الله عنه) أنه قال: قِيلَ لِلنَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: "نَعَمْ؟". فَقِيلَ لَهُ: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ بُخِيلًا؟ فَقَالَ: "نَعَمْ". فَقِيلَ لَهُ: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا؟ فَقَالَ: "لَا"). (رواه مالك في الموطأ).
- 7- وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ فَإِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا» (متفق عليه).
- 8- وعن المغيرة بن شعبه (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَيَّ غَيْرِي، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ). (متفق عليه).
- 9- وعن عبد الله بن عامر (رضي الله عنه) أنه قال: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أَعْطِكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ؟ قَالَتْ: أُعْطِيهِ ثَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكَ كِذْبَةٌ) (رواه أبو داود).

ثالثًا: الموضوع:

إن من عظمة الدين الإسلامي أنه ماترك خصلة من خصال الخير ولا طاعة من الطاعات تقربنا من رحمة الله - عز وجل - وجنته ورضوانه إلا وأمرنا بها ورغبنا فيها ، وما ترك خُلُقاً ذميمةً ولا خصلة من خصال الشر تبعدنا عن رحمة الله - تعالى - إلا ونهانا عنها وحذرنا منها ، فهو دين يجمع بين القيم والمثل الإنسانية الرائعة التي تجسد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة.

ومن الخصال الذميمة والأمراض الخطيرة التي نهانا عنها وحذرنا منها : مرض النفاق ، فهو مرض من الأمراض الاجتماعية وآفة من الآفات الخطيرة التي انتشرت في أوساط المسلمين وشاعت في مجتمعاتهم وعلاقاتهم ومعاملاتهم ، والتي تهدد كيان الأمة وترزع عقيدتها التي تقوم على الإخلاص في عبادة الخالق والصدق في معاملة المخلوقين.

وحقيقة النفاق: أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن ، فقد يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، وقد يبطن الكراهية ويظهر المودة ، أو يبطن الحقد ويظهر الفرح والحب ، أو يبطن الشر ويظهر الخير إلى غير ذلك من المظاهر التي يعرفها الناس.

وقد ظهر النفاق في العهد المدني ، فحين هاجر الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى المدينة وعَلَّت كلمة الإسلام وأصبح للمسلمين قوة ، لم يعد بإمكان بعض الكافرين الموجودين في المدينة الجهر بالعداء لدعوة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فأضرموا الكفر وأظهروا الإسلام حفاظاً على وجودهم ومصالحهم ، فسماهم الله تعالى بالمنافقين.

وقد ذكرهم سبحانه في عدة سور في القرآن الكريم مندداً بهم، ومحذراً من خطرهم ، وَخَصَّ اللهُ تعالى سورة باسمهم ، وهي سورة (المنافقون) ، قال تعالى : { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ \* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [المنافقون: 1 ، 2].

والنفاق نوعان: أكبر ، وأصغر.

النوع الأول: النفاق الأكبر : وهو أخطر النوعين وهو النفاق الاعتقادي الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر وهذا النوع مخرج من الدين بالكلية ، ويخلد صاحبه في النار بل يجعله في الدركات السفلى من النار ، قال سبحانه : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } [النساء: 145].

النوع الثاني: النفاق الأصغر: وهو النفاق العملي ، وهو انحراف في السلوك ، والتلبس بشيء من علامات المنافقين كالكذب في الحديث ، والخلف في الوعد ، والغدر والخيانة ونحوها، وذلك بأن يظهر الإنسان علانية صالحة ويبطن ما يخالفها ، وهذا النوع لا يخرج من الدين بالكلية؛ إلا أنه طريق إلى النفاق الأكبر .

وهذا النوع من النفاق حذرت منه السنة ، والأصل فيه ما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو ، وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة (رضي الله عنهم) في ذكر آية المنافق ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (آيةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ). (متفق عليه). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ. (متفق عليه).

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، ومن كانت فيه واحدة منها صار فيه خصلة من النفاق.

والمنافق أشر الناس؛ لأنه يبالغ في مدح الناس بالباطل من أجل المآرب والمصالح الشخصية، ويتلون حسب الطلب، فيقابل هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه آخر، وقد ذم الإسلام ذا الوجهين، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهِينَ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِهِ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهِهِ» (متفق عليه).

هذا النفاق الأصغر هو النفاق الذي كان يخافه السلف الصالح - رحمهم الله - على نفوسهم ، مع عمق إيمانهم وكمال علمهم ، فقد أخرج البخاري : تعليقا - أن ابن أبي مليكة (رحمه الله) قال : " أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كُلُّهُمْ يَخَافُ النَّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ : إِنَّهُ عَلَى إِيمَانٍ جَبْرِيْلَ وَمِيكَائِيلَ " .

لقد اشتد خوف السلف الصالح على أنفسهم أن يكونوا من جملة المنافقين ، فعن حذيفة (رضي الله عنه) قال: دُعِيَ عُمَرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لِحِجَازَةٍ، فَخَرَجَ فِيهَا أَوْ يُرِيدُهَا، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاكَ، فَقَالَ: «نَشَدْتُكَ اللَّهُ أَنَا مِنْهُمْ؟»، قَالَ: «لَا، وَلَا أُبْرِي أَحَدًا بَعْدَكَ» (مسند البزار).

فتأمل ما كان عليه الصحابة الأبرار من خوف شديد من النفاق ودواعيه ، ثم انظر إلى حال الأكثرين منا في هذا الزمان ، فمع ضعف الإيمان تجد الأمن من النفاق والغفلة عنه.

وإن المتأمل في كتاب الله تعالى وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) يجد أن الله تعالى حذر من المنافقين عامة ، فقال تعالى : { هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون: 4] .

لقد فضحهم الله سبحانه ، وكشف أسرارهم في القرآن الكريم ، وجلى لعباده صفاتهم ؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر ، فكان الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن في سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة، واستغرق ذلك قرابة ثلاثمائة وأربعين آية، حتى قال ابن القيم (رحمه الله): (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم) (مدارج السالكين)، وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم ، وشدة فتنهم على الإسلام وأهله ، إنهم لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران ، رأس مالهم الخديعة

والمكر، وبضاعتهم الكذب ، { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ \* فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [البقرة: 9، 10].

وكذلك حذر الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من الوقوع في شعب النفاق ، وأنذر من سلوك المنافقين ، خوفاً على أمته من النفاق والمنافقين ، فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ» (مسند أحمد). ومعنى (عَلِيمِ اللِّسَانِ): عَالِمِ اللِّسَانِ جَاهِلِ القَلْبِ وَالْعَمَلِ.

وصدق رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَإِنَّ أخطر المصائب في تاريخ الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً تأتي من طريق المنافقين ، ولا نكاد نرى عصراً من العصور في تاريخ المسلمين إلا ونجد للمنافقين فيه دوراً خطيراً ، فقد أفسدوا عقائد كثير من الناس ، فالمنافقون قوم ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مُسْوَك الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب. إنهم يستخفون من الناس ولا يراقبون عالم السرائر، ويحرصون على تزيين ظواهرهم بالأقوال والأفعال ويخفون في بواطنهم السوء.

ولخطورة هذا الصنف من الناس ذكر الله تعالى للمنافقين صفات كثيرة ، أخطرها : الكفر بالله ، قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ } [البقرة: 13].

ومن صفاتهم: الفساد في الأرض بالكفر والنفاق، قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَّا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ \* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ } [البقرة: 11، 12].

ومن صفاتهم : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والبخل بالمال ، كما أخبر الله عنهم بقوله : { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [التوبة: 67].

ومن صفاتهم : البهتان والكذب ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : { وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ } [التوبة: 56]. فالكذب علامة واضحة تشهد على صاحبها بالنفاق ، كما ورد في حديث أبي هريرة ( آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ ) [ البخاري، مسلم]. إلى غير ذلك من الصفات التي وردت في الكتاب والسنة.

إن أكبر خطر تهددت به الأمة الإسلامية على مر العصور هو النفاق ، فإذا نظرنا في مسيرة التاريخ الإنساني لوجدنا أن النفاق هو العامل الأخطر في تقويض الدولة الإسلامية، لأنه يدب في جسد الأمة كما يدب السرطان في جسد الناس، ولا يشعرون به إلا وهم جثة هامدة ، وهذا ما يحدثه النفاق في وحدة الأمة، حيث يجعلها جثة هامدة عن طريق إحداث الفتنة والاضطرابات والفرقة، والعمالة مع أعداء الإسلام في هدم الإسلام والمسلمين.

فالنفاق داء الأمة العضال ، خطره عظيم ، والمنافقون أشد خطراً على المسلمين لأنهم يخالطونهم ويعلمون أحوالهم ، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى : { هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون: 4].

ومما يؤكد خطر النفاق : أن الكثير من شعب النفاق الأصغر – الذي لا يخرج عن الملة – قد عمت وانتشرت في مجتمعات المسلمين ، كالكذب ، وخلف الوعد والغدر والخيانة ، وغير ذلك ، بل استفحل الأمر وعظم النفاق حتى صرنا نشاهد صوراً أو أنواعاً من النفاق الأكبر في بلاد المسلمين.

ولما كان خطر الكفار والمنافقين على الأمة الإسلامية عظيماً أمر الله رسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بمجاهدتهم والغلظة عليهم ، فقال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ } [التوبة: 73].

ولئن كانت وصية ربنا سبحانه لنا ملازمة التقوى والتزام الصدق لكونهما طريق مرضاة الله وعنوان الفوز بجنات النعيم ، كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة: 119] ، فإن من أقبح الصفات وأشنع الخصال صفة الكذب.

فالكذب من السلوكيات المذمومة التي حذر منها القرآن الكريم ، أمره خطير وشره مستطير ، فهو جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه ، وإن كان علامة وخصلة من خصال النفاق إلا أنه أولى صفات المنافق ، وركن من أركان النفاق ، فإذا ذكر النفاق في القرآن ذكر معه الكذب ، وإذا ذكر الكذب ذكر معه النفاق ، قال تعالى : { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [المنافقون: 1] ، وقال تعالى : { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَاللَّهُ خَادِعُونَ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ \* فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [البقرة: 9-10].

فالكذب عنوان النفاق ، إضافة إلى أن وجوده في الشخص دليل على ضعف الإيمان ، لذلك أثر عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قوله : (يُطَبِّعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ) ، ولقد نفى رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن المؤمن أن يكون كذاباً ، حين سئل : « أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ فَقَالَ : " نَعَمْ ؟ " . فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا ؟ فَقَالَ : " نَعَمْ " . فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا ؟ فَقَالَ : " لَا " » [أخرجه مالك في الموطأ].

وما ذاك إلا لأن الكذب صفة ذميمة ، تهدم شخصية المسلم بين الصادقين ، وتعرضه لعقاب الله عز وجل ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } [غافر: 28] ، وقال سبحانه : { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [النحل: 105].

إن للكذب أشكالاً وألواناً أخطرها وأقبحها: الكذب على الله - عز وجل - فقد وصفه الله - تعالى - بأبشع الظلم، وتوعد عليه أليم العقاب وسوء المصير، قال سبحانه: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} [الزمر: 32]. فالكذب حرام بكل أشكاله وألوانه، وإن الكذابين الأفاكين لا مكان لهم في الإسلام، ولا خلاق لهم عند الله، وليس لهم في الآخرة إلا النار وبئس القرار.

إن الذين يكذبون على الله - من المتطاولين والمتعالمين - وينسبون لشرعه ما ليس منه تحليلاً وتحريماً من أجل تبرير مصالحهم وتصرفاتهم، يسلكون مسلكاً خطيراً يؤدي إلى العبث بمصالح الأمة، وسفك دمائها، وبث الفرقة والشتات في صفوفها، لذا حذرنا ربنا سبحانه من هذا المسلك في قوله: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ \* مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل: 116، 117].

كذلك من أخطر الكذب وأشنعه: الكذب على رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ولخطورة عواقبه حذر منه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ووصف صاحبه بأنه يشتري بذلك مقعده في النار، فعن المغيرة بن شعبه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبِ عَلَيَّ غَيْرِي، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ). (متفق عليه).

إن الكذب بالإضافة إلى كونه محرماً شرعاً فله عواقب وخيمة على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة، فمن خبيث ثماره ووخيم عواقبه أنه يخلف في الفم نناً يجعل الملائكة تنفر منه، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلَكُ مِيلاً مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ» (سنن الترمذي)، ويقول الله تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ \* تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ \* يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَاذِبُونَ} [الشعراء: 221 - 223].

ومن آثار وعواقب الكذب في الآخرة أن مآل صاحبه يوم القيامة نار جهنم والعياذ بالله، كما جاء في الحديث: «وَأَيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا».

وهكذا بقية شعب النفاق العملية، من إخلاف الوعد، وفجور في الخصومة، وخيانة في الأمانة وغيرها، قد نتساهل بها أحياناً وهي طريق الضلال والنفاق الأكبر، فليحذر العاقل من شعب النفاق كلها ويتهم نفسه كما اتهم السابقون أنفسهم، وليطيب أعماله كما طيبها السابقون، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فلنحذر ذو الوجهين فهم شرار الخلق، كما قال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): ((تجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه)) رواه البخاري، فهذا الصنيع وإن كان في عرف المتأخرين دهاءً ولباقة فهو في عرف المتقدمين كذب ونفاق وخيانة.

لذلك فإننا بحاجة شديدة إلى اجتناب هذا الخلق الشنيع من بيننا و تطهير المجتمع من مظاهره ،  
وأن نتحلى بخلق الصدق الذي أمرنا به ربنا سبحانه وتعالى ، فقال : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا  
مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119] ، وكذلك وصانا به رسولنا (صلى الله عليه وسلم) فقال : «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ  
الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ  
عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ  
الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا» (متفق عليه).

كما يجب علينا أن نغرس فضيلة الصدق في نفوس أطفالنا ، حتى يشبوا عليها ، وقد ألفوها  
في أقوالهم وأحوالهم كلها ، فعن عبد الله بن عامر (رضي الله عنه) أَنَّهُ قَالَ : دَعَنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ  
(صلى الله عليه وسلم) قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا ، فَقَالَتْ : هَا تَعَالَ أُعْطِكَ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) :  
وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ قَالَتْ : أُعْطِيَهُ تَمْرًا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ  
شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكَ كِذْبَةٌ (رواه أبو داود).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ : " مَنْ قَالَ لِيَصْبِي :  
تَعَالَ هَاكَ ، ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ فَهِيَ كِذْبَةٌ " (رواه أحمد).

فلننظر كيف علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) الأمهات والآباء أن ينشئوا أولادهم تنشئة يقدسون  
فيها الصدق ، ويتنزهون عن الكذب ، ولو أنه (صلى الله عليه وسلم) تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من  
التوافه الهينة لخشي أن يكبر الأطفال وهم يعتبرون الكذب ذنباً صغيراً وهو عند الله عظيم.